مقاهى قديمة شهيرة

من الأطعم والأكثر راحة لك أن تنظر إلى الأيام .. تقيمها وتشربها كما القهوة ! فترى بعضها مضبوطاً وقليلها زيادة ومعظمها سادة وأكثرها على الريحة إن القهوة تشبه في لونها الداكن لوناً آخر داكناً صنع الجزء الأخضر من حضارة مصر .. إنه طمي النيل الأسود فإذا كان اللون الداكن الأول يصنع للمصريين مزاجهم فإن الثاني يصنع لهم حياتهم وفيما بين الاثنين يوجد الداكن الثالث الذي يصنع لبعضهم أحلامهم وهو المعسل ! بالصوت والصورة أنقل يوميات لتلك المقاهي التي تشغل مساحة هامة من شارع التاريخ المصري .. ولا تستغربوا من حكاية الصوت هذه لأنه ربما بعد أن تنتهوا من قراءة الموضوع يخرج لكم من بين صفحاته من يقول أيوه جاي !

المقاهي في بداية القرن كانت موقعا مفضلا للعامة والتجار والمارين بالقاهرة على سبيل الترانزيت ثم مع بداية مواجهة الاحتلال كان صوت جمال الدين الأفغاني لا ينقطع عن التنوير داخل مقهى متاتيا الذي يهدمونه الآن بوسط ميدان العتبة .. كانت معظم الاستعدادات لمظاهرات ثورة ١٩١٩ تنطلق من المقاهي ثم جاء الأفندية خلال الثلاثينيات في مقدمة تلك المواقع التي اتخذت .. من أشهر مشروب تقدمه القهوة .

كانت من أهم مقاهى القاهرة فى العصر الحديث، والتى لعبت دوراً مهماً فى الحركة الثقافية والسياسية فى مصر بل والعالم العربى، "مقهى نوبار" الذى كان يقضى فيه عبده الحامولى أمسياته وهو نجم الغناء العربى الأول فى القرن التاسع عشر ، ارتبط اسمه بالمطربة ألمظ التى تزوجها وقدما معا أفضل الأدوار العربية فى تلك الفترة ، ذاع صيته وكان له جمهور كبير خاصة من أمراء القصور الذين كان يحيى حفلاتهم ، وكان معجبوه يلقبونه بلقب سى عبده وكان يقضى وقته فى تلك المقهى وحوله أصحابه من بينهم "باسيلى عريان" .

كون عبده الحامولى مع ملحن الأدوار الفذ محمد عثمان ثروة هائلة من الأدوار التقليدية لا زالت تسمع لليوم ، وبفضلهما تطور قالب الدور العربى القديم إلى القالب الأساسى الذى بنى عليه سيد درويش أدواره العشرة الشهيرة ، غير أن سيد درويش أضاف إلى الدور إمكانيات وأشكال جديدة كما أضاف إليه البعد التعبيرى .

ويرجع إلى الحامولى ومحمد عثمان فضل تمصير الغناء أى أداء المقامات التركية على درجات المقامات المصرية التى تلقى قبولا أكبر لدى المستمع العربى .

البدايات :

ولد عبده الحامولى بالقاهرة عام ١٨٣٦ ، وينسب اسم الحامولى إلى قرية الحامول بمحافظة كفر الشيخ بمصر ، وحفظ الكثير من تراث الموسيقى العربية من الموشحات والقدود الحلبية التى بدأ بغنائها وكان نجما دائما فى حفلات مقهى عثمان أغا بحديقة الأزبكية بالقاهرة حيث عمل مع المعلم شعبان أحد حفظة الموشحات وتلقى عنه الكثير منها ، كما انضم إلى فرقة أبو خليل القبانى المسرحية ثم كون فرقته الخاصة .

غير أنه كان يطمح إلى الجديد والابتكار ، فبدأ بتنقيح التراث وتثبيت أشكاله وإضافة ما يمكن إليه من إبداعاته وساعده فى ذلك إمكانياته الصوتية الهائلة ، إلى أن تولى محمد عثمان عنه والشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب مهمة تلحين الدور فاستقر على ما أصبح عليه حتى مقدم سيد درويش فى أوائل القرن العشرين .

أعمـاله :

أقبل عبده الحامولى على تلحين الشعر العربى وتعرف إلى العديد من شعراء عصره ومثقفيه مثل محمود سامي البارودي ، إسماعيل صبرى باشا ، والشيخ عبد الرحمن قراعة ، وعائشة التيمورية ، وكان يطلب منهم الكتابة له لحرصه على الارتقاء بالمضمون الشعرىوكانت تتم لقاءته بكثير من الشعراء على مقهى نوبار .

والحامولى أول من لحن القصيدة التقليدية مثل أراك عصي الدمع لأبي فراس الحمدانى ، وأعجب بصوته الخديوى اسماعيل واصطحبه للغناء فى الآستانة (القسطنطينية – استانبول) عاصمة الدولة العثمانية فانتهز الفرصة للتعرف أكثر

على الموسيقى التركية ومقاماتها وأشكالها ، كما سافر إلى البلاد العربية فتعلم نغمات استخدمها فى أدواره الجديدة فأضاف لها مذاقا جديدا ، وعلى غير ما توقع فإن النغمات المصرية التى مزجها بها جعلت أدواره ذات مذاق جديد على الأتراك أيضا فراجت فى تركيا كما فى مصر .

وقد كان " باسيلى عريان " من أهم مشجعى عبده الحامولى ومن أصدقائه الذى قيل أنه أنفق نصف مليون جنيه فى المقهى لأنه كان يضيق أحياناً بالزبائن، فطلب من صاحب المقهى إخلاءه منهم، ليبقى هو وأصحابه فقط على أن يعوضه الخسارة، وكانت النتيجة أن باسيلى قد أفلس بسبب المقهى. توفى عام ١٩٠١ بعد وفاة محمد عثمان بعام واحد ، وللحامولى شارعان يحملان اسمه فى كل من القاهرة والإسكندرية.

قصة أشهر (مقاهى) شاركت فى صناعة تاريخ مصر :

المؤلف الإنجليزي " هـ . ج ويلز " له رواية بديعة بعنوان " آلة الزمن" يدور موضوعها حول الحركة السابعة فالحركات الأصلية ستة : فوق وتحت ويمين ويسار وأمام وخلف ولكن هناك حركة سابعة هي حركة الزمن على مكان ما بالذات، فربما كان نفس المكان من ألف سنة معبداً – مثلا أو سكنا أو خليجا – الذي أصبح شارع الخليج المصري بالقاهرة ثم يتحول هذا المكان على مر السنين إلى صور أخرى من تلك الصور .

تلك الرواية التي كتبها ويلز كتبت مثلها العديد من مقاهي القاهرة الشهيرة وفي مقدمتها مقهى الحرية في قلب ميدان باب اللوق الذي شغل موقعه في وقت ما منزل أحمد عرابي باشا .

قصة مقهى الأنجلو :

ومقهى الأنجلو المركزي في شارع شريف باشا ورغم اندثار مقهى الأنجلو إلا أن ذكرياته ماتزال عالقة في أذهان بعض عماله من أبناء حي عابدين الذين التقيت بهم وقالوا : إن باشوات مصر كانوا يلتقون في هذا المقهى الفسيح تجمعهم فناجين القهوة في الصباح والسهر والنميمة في المساء ولسان حالهم يقول دائما إنهم متحابون في المساء متحاربون في الصباح .

موائد الأنجلو في المساء دائما محجوزة بالاسم لعدد من البكوات والبشوات ولكل مزاجه الخاص ومعارفه الذين لا يسمح لأحد غيرهم بالجلوس معهم ..

حسن رفعت باشا كان وكيلا لوزارة الداخلية سابقا يذهب كل صباح إلى الأنجلو فقط – ليلتقي برجل منهم اسمه الشيخ صالح رويتر فهو من كثرة ما يحمل من أخبار وحكايات نافس وكالة رويتر في البث ! يجمع أخباره من عمال المقاهي وخدم المنازل ويجلس السيد حسن رفعت باشا يعرف ما يدور بالبلد دائما إلى صالح رويتر في صمت لا يقطعه سوى صوت رشفاته من فنجان القهوة ثم يذهب إلى مكتبه بالوزارة.

ويقول الكاتب عبد المنعم شميس : لقد اشتغلت سكرتيرا خاصا لحسن باشا رفعت بعد تخرجي من الجامعة لمدة ستة أشهر أو أكثر قليلا ولم أر في حياتي رجلا مثله في هدوء الأعصاب والسيطرة على المواقف المتفجرة وكثيرًا ما شاهدته عائدا من مقهى الأنجلو وخلفه تابعه وحراسه السريون قاطعين الطريق مشيا على الأقدام من المقهى في شارع شريف وإلى الوزارة في شارع الشيخ ريحان وسمعته يضع كثيرا من خططه طبقا لتقرير تابعه الشيخ صالح رويتر .

مقهى اللواء :

ومما اندثر في القاهرة رغم أن اسمه في الأصل بار مقهى اللواء وكان مواجها لمبنى جريدة الأهرام القديم بشارع مظلوم بوسط القاهرة وهو بار مقهى يحمل تاريخا سياسيا واجتماعيا هاما وكان دوره الثاني صالة للبلياردو من زبائنها الهامين حمد الباسل باشا عضو الوفد الشهير وكانت بعض الناس تطلق عليه أبو زر فقد كان الطربوش طويل الزر لا يفارق رأس حمد الباسل !

ومن أبرز معالم بار اللواء كان الشيخ عبدالعزيز البشري الذي يظل واقفا ببابه انتظاراً لقدوم قرينه الشاعر حافظ إبراهيم وينضم إليه إبراهيم عبدالقادر المازني والدكتور محمود حسين هيكل وشاعر البؤس عبدالحميد الديب والعديد من رجال الصحافة .. وتلك الأسماء ستراها دائما مرتبطة بالعديد من المقاهي الشهيرة بالقاهرة

خلال الثلاثينيات والأربعينيات فلا تمل من تكرارها فهكذا كانت الحياة وحياتهم في مصر المحروسة التي تحركها آلة الزمن .

مقهى السنترال :

في ميدان الأوبرا كان يوجد "مقهي السنترال"، وهي الآن جزء من ملهى صيفي في الميدان نفسه، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى الآن، ويعرف باسم" كازينو الأوبرا"، وكانت به ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة..

مقهى متاتيا أو البوستة :

مكانها ميدان العتبة الخضراء، وكان من مرتاديها، جمال الدين الأفغاني، الأمام محمد عبده، سعد زغلول، إبراهيم الهلباوي، عباس العقاد، الشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ التي كانت تصدر في القاهرة.

مقهى القزاز :

مكانها الآن بعض المباني القائمة عند الجانب الأيمن من الشارع بالقرب من العتبة، وعامة زبائنها من أهل الريف، الذين يجلسون فيها ويتأملون النساء القاهرية المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء أثناء اتجاههن لشراء حوائجهن من أكبر شوارع القاهرة التجارية في ذلك الوقت.

مقهى "المضحكخانة :

بالسيدة زينب، ويشترط لدخوله والجلوس فيه أن يقدم الجالسون فقرات من التنكيت والقفشات، فإذا أعجبت صاحب المقهى ضمهم إلى مجلسه.. وغيرها من المقاهى العديدة ذات الفنون الشعبية والثقافية المتباينة.

مقهى التجارة :

"وهي من أقدم مقاهي القاهرة، ويزيد عمره الآن عن ١٢٠ سنة، ولا تزال قائمة حتى الآن ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين في الفرق التى تتخذ من شارع محمد

علي مقرا لها. وكانت أشهر فرقة تجلس عليها هي فرقة حسب الله، وكان أحد الموسيقيين في ليالي الخديوي إسماعيل، وعندما خرج من الخدمة عمل أول فرقة للموسيقى تقدم الجنازات والأفراح.

مقهى الكتبخانة :

تقع في نهاية شارع محمد علي أمام دار الكتب، وكان من روادها الشاعر حافظ إبراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى والشيخ حسن الآلآتى.

مقهى عكاشة :

أنشئت في الاربعينات، بناه أولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة. وكان قديماً مزود بأجهزة استماع للموسيقى.

مقهى الفيشاوي الشهيرة :

عمرها الآن يتجاوز ١٠٠عام، ويشتهر بالشاي الأخضر والأحمر الذي يقدم في أكواب زجازجية صغيرة، وفي شهر رمضان يكثر روادة من الفنانين والكتاب والناس العاديين وفي الأيام والشهور العادية، كان للمقهى سحرة الخاص.

وكان يجلس صاحبه الحاج فهمي الفيشاوى وعلى بعد خطوات منه حصانة العربي الأصيل، وفوقه أقفاص الحمام الذي كان مغرما بتربيتة. وصدر قرار بهدم المقهي ١٩٦٧ ولم يستطع الحاج فهمي أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه، فمات قبل أن يرتفع أول معول للهدم بأيام قليلة. ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه وسرعان ما أعيد فتح المقهي بعد أعوام ضئيلة.

ومن أشهر المقاهى التي كان يرتادها الأديب العالمى "الفيشاوى" في حى الحسين و"عرابى" و"زقاق المدق" و"الفردوس" و"قشتمر" و"ريش" التي كانت تعد ملتقى للادباء الى جانب قهوتي "سان استيفانو" و"سيدى بشر" في مدينة الإسكندرية الساحلية.

وأكد مدير مقهى الفيشاوى سامح عبدالله أن الأديب الراحل كان يعشق الجلوس

obeikandl.com

على المقهى الذى كان يلتف حوله الأصدقاء والمهتمون بالأدب وأيضا البسطاء وعامة الناس الذين مثلوا محور اهتمام معظم رواياته.

وقال سامح فور علمنا بوفاة الأديب الكبير قمنا بكتابه نعي وتثبيته على باب المقهى لرثائه مشيرًا إلى إطلاق إسم نجيب محفوظ على المقهى تقديرا لمكانته البارزة خاصة في اوساط المثقفين والعامة.وأوضح أن محفوظ أسعد أجيالا متعاقبة من القراء على امتداد البلاد العربية وشارك في تشكيل وجدانها على مدى قرن من الزمان كما امتد تأثيره الثقافي الى العالم الخارجي لافتا الى ان بعض رواد المقهى من الاجانب كانوا يحرصون على الجلوس مع محفوظ والاستماع اليه كما عبروا عن حزنهم العميق لوفاته.يذكر ان محفوظ اول كاتب عربي يحصل على جائزة نوبل في الادب عام ١٩٨٨ وترجمت بعض رواياته الى اللغتين الفرنسية والانجليزية والعديد من اللغات الاخرى كما حولت معظم رواياته الى اعمال سينمائية وتوفي في ٣٠ اغسطس٢٠٠٦ .

مقهى عرابي :

وهي من المقاهي الشهيرة في القاهرة القديمة ، كانت تقع بميدان الجيش عند نهاية الحسينية، وعرابى صاحبة كان أحد الفتوات المشهورين في أوائل هذا القرن، وكان مقهى عرابي من أشهر مقاهي القاهرة في النصف الأول من هذا القرن .. وصاحبه من أشهر الفتوات في القاهرة .. ويصفه محفوظ «كان مهيب الطلعة وكأنه خلق لكي يكون زعيماً .. وبلغت سطوته أن مأمور قسم الظاهر لجأ إليه يوماً يطلب حمايته ولكن عرابي أقصر عرش الفتوة بعد أن ضرب «كونستابل» انجليزاً وجرده من ملابسه فقبضوا على عرابي وعندما خرج من السجن اعتزل الفتونة واصبحت حياته كلها مقصورة على المقاهى التي تحولت إلى عدة دكاكين الآن..

ومن رواده نجيب محفوظ حيث يلتقى بأصدقائة القدامي وزملاء الطفولة، وهذه الجلسة التي تتم كل يوم خميس في مقهى «عرابي» كان اللقاء يتميز بالحيوية فتعلو فيه ضحكات أديبنا الكبير وكان يتبادل الدعابات والتعليقات الساخرة .. في هذا المقهى

ولدت رواية «الكرنك» عندما شاهد محفوظ ذات يوم رجلاً دخل المقهى فساد صمت غريب .. فسأل عنه فعرف أنه حمزة البسيوني مدير السجن الحربي سابقاً .. ولم يره إلا هذه المرة ثم قتل الرجل في حادث بعد ذلك بأسبوعين.

مقهى الفن:

في مواجهة مسرح رمسيس (مسرح الريحانى) وكان ملجأ البؤساء من الفنانين، الكومبارس، والنساء الضاحكات، كانت هناك "ماري منصور، زينب صدقي، دولت أبيض، أمينة رزق، عزيزة عيد و فاطمة رشدي".

مقهى المارشال علي:

ترحل المقاهي بالبشر، ويرحل البشر عبرها، انها مرافئ المدينة وزوايا أسرارها... ويعتبر القاهري المقهى ركيزة مكانية لانتمائه، فيقول «أنا رايح قهوتي»، ويتحدث باعتزاز عن شلة المقهى وصحبه، والمقهى بالنسبة له عصبة وملاذ ايضا، من أغرب المقاهي التي عرفتها، مقهى الخرس «تقع في وسط المدينة» مقهى فسيحة جيدة الاضاءة، لا يقصدها الا الخرس. ويقول الكاتب جمال الغيطانى :

" كنت أدخل اليها فأخجل من النطق، ذلك أن معظم روادها يتحدثون بالاشارة، يجيء كل منهم عبر مسافة بعيدة ليلتقي بالآخرين.. وكان أحدهم بدينا، يجلس دائما بمفرده، غير أن الابتسامة لا تفارق ملامحه، يتطلع الى هذا، ويرفع يده تحية لذلك، انه في حالة تواصل وانقطاع مع الوجود المحيط به. من أقدم الشخصيات المرتبطة عندي بالمقاهي، المارشال علي. ومن المقاهي القديمة، مقهى الجاذيب التي تقع شرق المسجد، ومعظم روادها من الدراويش الذين هجروا أعمالهم ومقار اقاماتهم واستقروا بجوار الضريح القاهري للحسين الشهيد، «ابن بنت الرسول عليه الصلاة والسلام»، الذي أخذ مكان اله مصر القديمة، الشهيد أوزير، كلاهما استشهد من أجل الحق " .

" عندما كنت طفلا في السابعة أو الثامنة، يصطحبني والدي لزيارة سيدنا الحسين، أمر بمهقى الجاذيب، عند الاقتراب منها تنتابني رهبة، فسأرى المارشال علي. كان رجلا أبيض الوجه، أحمر شعر اللحية، مكحول العينين، يرتدي حلة ضابط كبير

بجيش لا يمكن تحديد هويته، على كتفيه رمانتان من الخيوط الحريرية وكأنه جنرال في جيش نابليون بونابرت، أما غطاء الرأس فيشبه الأغطية القوقازية " .

" كان صدره مسرحا لنياشين قديمة... بعضها مصري أو عثماني أو أوروبي، والى جانب النياشين علامات تجارية لسجائر بطل انتاجها، ومشروبات من أوائل القرن، وعلامات غامضة، وكان يرتدي قفازات جلدية صيفا وشتاء، يجلس فوق مقعد مرتفع وكأنه كرسي العرش " .

" كنت أهابه، لكنني بعد دخولي المدرسة، وتجرئي على التجوال بصحبة زملائي بعد انتهاء اليوم الدراسي... صرت أقترب منه معهم، نقف على مسافة قريبة ونرفع أيدينا بالتحية العسكرية، عندئذ يقوم واقفا.. يرد تحيتنا بأخرى أحسن منها، مارشالية، وكأنه يستعرض قواته. غير أن الموقف لا يستمر هكذا، اذ سرعان ما يصيح أحد الصبية بكلمة بذيئة جدا، موجهة اليه " .

" عندئذ يشهر سيفه، ويزأر مهددا، وبالطبع ننطلق.. نجري بأسرع ما في وسعنا لكن المارشال علي نيابة لم يغادر مكانه قط.. حتى عثروا عليه يوما مغمض العينين مفارقا الحياة في جلسته التي لم أره في غيرها، حتى انني لأعجب الآن، أين كان يرقد، أين كان يغفو " ؟

" مازال البعض يذكرون المارشال علي نيابة كطرفة... كاحدى الشخصيات الغريبة التي تعبر ميدان سيدنا الحسين، أو تقيم به " .

" لكن... من هو؟ من أين جاء؟ لا يتوقف أحد للاجابة، فما أكثر الذين عبروا القاهرة القديمة، وكل عبور يعني انقضاء... أي موت، أي عدم، حتى وان كان يعني الوصول الى مكان بعينه، كتب عديدة وصلتنا عبر القرون الخمسة عشر، تذكر سير شخصيات مرت بالقاهرة، بدءا من السلاطين والأمراء حتى الصناع والتجار والحرفيين والفنانين المجهولين الذين حفروا الحجر، أو نقشوا الرخام، أو كتبوا على الجدران " .

" لم يبق منهم الا الحفر الخفي الماثل في تلك المباني العتيقة، طوابير لا تنتهي تعبر المدينة، تأخذ منها وتضيف اليها، طوابير تجيء من العدم وتمضي الى العدم " .

مقهى إيزافيتش :

مقهى "ايزافيتش" فى ميدان التحرير، وهم اسم لعائلة يوغسلافية من الصرب جاء ثلاثة أشقاء منها ليفتتحوا هذا المقهى ، الذى أصبح ملتقى لأهم المثقفين من الأربعينات حتى منتصف سبعينات القرن الماضى . حتى أن لويس عوض أهدى كتابه "بلوتولاند" إلى "الفتيات الضاربات على الآلة الكاتبة وإلى آكلات السندويتشات من ايزافيتش" ، كما أن عبد الرحمن الأبنودى كتب عن أشهر جرسوناته "عم جمعة" قصيدة جميلة يقول فيها :

عم جمعة جرسون قهوة ايزافيتشالأسمر...

أبو وش يهش ينش الكلمة الوحشة بره العش

مقهى ريش :

الصامد الأكبر هو "مقهى ريش" .. وهذا ليس مجرد مقهى. والدليل باختصار شديد تحمله "الفلاشات" السريعة التالية :

١- من حيث النشأة .. هو عريق بكل ما تحمله الكلمة من معنى .. فقد أقيم عام ١٩٠٨ على أرض قصر الأمير محمد على توفيق قبل أن ينتقل إلى قصره الجديد الموجود حاليا فى المنيل.

٢- من حيث الدور .. – وفى مجال السياسة" – كان مكاناً سرياً يجتمع فيه زعماء ثورة ١٩١٩ وهذا ما أكده المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى شخصياً، كما توجد فى قبو المقهى حتى الآن ماكينة طبع منشورات الثورة ، كما كان المكان الذى قبع فيه عريان يوسف سعد فى ١٥ ديسمبر ١٩١٩ لمحاولة اغتيال رئيس وزراء مصر صاحب الدولة يوسف وهبة لتشكيله حكومة موالية للاحتلال البريطانى .

٣- من حيث الدور أيضاً – وفى مجال الفن – كان المكان الذى جاءه صالح عبد الحى وزكى مراد والشيخ أبو العلا محمد ثم جاءت أم كلثوم بشحمها ولحمها لتغنى فى بداية مشوارها الفنى المجيد بعد حضورها من المنصورة إلى القاهرة . وعندما تتصفح عدد ٣٠ مايو ١٩٢٣ من جريدة المقطم ستجد الاعلان التالى: "تياترو كافيه

ريش – تطرب الجمهور يوم الخميس مساء ٣١ مايو بلبلة مصر صاحبة الصوت الرخيم الآنسة أم كلثوم .. هلموا واحجزوا محلاتكم من الآن – كرسى مخصوص ١٥ قرشاً ودخول عمومى ١٠قروش".

٤- من حيث الدور كذلك – وفى مجال الأدب – ارتبطت "ريش" باسم الأديب الكبير نجيب محفوظ سنوات متصلة . ولذلك حكاية طريفة بدايتها أن نجيب محفوظ كان من رواد مقهى الأوبرا المنتظمين . وفى أحد أيام ١٩٦١ – والعهدة على الأديب جمال الغيطانى – كان الرئيس جمال عبد الناصر ذاهباً لصلاة الجمعة فى الأزهر وكان موكبه يأتى من شارع الجمهورية ويتجه إلى ميدان الأوبرا ثم إلى ميدان العتبة فشارع الأزهر.

وضمن جزء من تأمين الموكب كان هناك بعض ضباط الحراسة فى الشارع . وقد لاحظوا اناساً بالنظارات يدخلون مقهى الأوبرا. وكان المقهى يقع فى شارع جانبى صغير ويتكون من ثلاثة طوابق وفيه سلم حلزونى ، ولاحظوا ان مرتدى النظارات يدخلون هذا المكان واحدا وراء الآخر. فشكوا فى الأمر ، فصعد ضابط إلى المقهى ووجد الأدباء مجتمعين حول الأستاذ نجيب فتقدم ناحيته وسأله : أنت مين ؟ فقال له نجيب محفوظ : نحن أدباء ونقعد هنا منذ عام ١٩٤٣.

فطلب منه بطاقة تحقيق الشخصية .. فأعطاها له محفوظ بأدب شديد . وفى الاسبوع الثانى حضر ندوة الأديب الكبير ضابط أمن وجلس خلف الأدباء وبعد أن انتهت الندوة ذهب إلى نجيب محفوظ وقال له : انتوا بتتكلموا كلام غريب وترددون أسماء أغرب مثل تولستوى . فاذا سمحت انا عاوز تلخص لى المناقشات التى بتقولوها علشان ناخذ فكرة. فى الأسبوع التالى اتخذ محفوظ قراره بانهاء ندوة مقهى الأوبرا .

ويقول جمال الغيطانى : " بدأ الاستاذ نجيب محفوظ يتردد على المقاهى مرة أخرى وذهب إلى مقهى سفنكس أمام سينما راديو الذى تحول الآن إلى محل أحذية ولم يستمر . وبعد ذلك انتقلنا إلى مقهى ريش . وهذا المقهى لابد أن تكتب عنه كتب خلال حقبة نجيب محفوظ . فهذا المقهى انسانى جداً فالذى لا يملك حق المشروبات لا يدفع ، وكانت فيه مشاجرات بين الأدباء ، والأجمل من ذلك كله ان المثقفين والنقاد الأجانب

كانوا يرسلون الخطابات إلى نجيب محفوظ على مقهى ريش وليس عن طريق عنوان بيته . وكانت تصل له بالفعل" .

هذا الكلام – الذى نقله مصطفى عمارة عن الأديب جمال الغيطانى فى مقاله الجميل "تسعينية نجيب محفوظ فى حكايات مقهى ريش" .. هو مجرد بداية خيط للدور المهم الذى لعبه هذا المقهى فى التاريخ الحديث للثقافة المصرية فلم يكن نجيب محفوظ هو النجم الوحيد المتألق فى هذا المكان البديع ، بل كان معه أهم الأسماء التى أثرت حياتنا الثقافية والفكرية والتى أغنت وجداننا بابداعات رائعة.

وعندما هبت على مصر موجة الانفتاح لم يرضخ مجدى عبد الملاك وشقيقه ميشيل .. الملاك الحاليين لمقهى ريش ، ولم يسل لعابهما أمام بريق الأموال الطائلة التى تم عرضها عليهما كى يتنازلا عن هذه المنارة الثقافية ويقبلا بتحويلها إلى محل أحذية أو أحد مطاعم الوجبات السريعة أو توكيل لشركة أجنبية ، وظلا محافظان على هوية هذا المكان حتى عندما كان القابض على مبدئه كالقابض على الجمر.

وهو ما جعل الكاتب والأديب الأردنى خيرى منصور يقول عن "ريش" أنه "مقهى يدافع عن مدينة وعن زمن أخضر هبت عليه ومن نوافذه العواصف المغبرة الصفراء" وهو تعبير جميل فوق أنه حقيقى.

مقهى الندوة :

ويعتبر مقهى الندوة الثقافية باب اللوق أحد الأماكن المفضلة للمثقفين وأهل الفن والصحافة والإذاعة والتليفزيون منذ السبعينيات وإلى اليوم وتقع فى عمارة البدراوى بميدان الفلكي، وهى مقر لتجمع عدد كبير من الكتاب والأدباء والصحفيين والفنانين الذين استمر ارتباطهم بالمقهى حتى الآن.

وهناك "النادى اليونانى" .. "استرا " .. "الأوديون" .. "زهرة البستان" محال كثيرة .. بعضها صمد ومعظمها اندثر.. خاصة فى "وسط البلد" حيث طاردت محال الأحذية ومطاعم الوجبات السريعة .

الحديث عما اندثر في مصر لا ينتهي وبخاصة مقاهي القاهرة ورغم تشويق وإثارة هذا الجانب إلا أن الحي أبقى من الميت في المقاهي أيضا .

المقهى شاهد صادق على الأعمال الأدبية

لعب "المقهى" دورًا مهما في ابداع الأديب المصري الراحل نجيب محفوظ وظهرت في معظم رواياته وخرجت أغلبها منه وأهمها الثلاثية الشهيرة "بين القصرين وقصر الشوق والسكرية" التي تتناول تفاصيل جوانب متعددة لحياة الاسرة المصرية.وشكل "المقهى" قلب أعمال نجيب محفوظ والتي ابرزت القاهرة القديمة وحواريها العتيقة وطريقة حياة سكانها حيث استطاع ان يعكسها بقوة وصدق وتسجيلها في تاريخ الأدب لكي تطلع عليها الأجيال المتعاقبة.

وكان"مقهى عرابي" من أشهر مقاهي القاهرة في النصف الأول من القرن الماضي وصاحبه من أشهر الفتوات حيث استمد منه محفوظ شخصية الفتوة الذي يقف بجانب الضعفاء والمظلومين كما شهد هذا المقهى ميلاد رواية "الكرنك" التي تحمل اسم احد المقاهي المشهورة.

والداخل الى"مقهى الحرافيش" والتي سميت أيضا على أسم أحد رواياته يجد تمثالا كبيرا للاديب الراحل ومكتبة تضم اهم رواياته كما تحمل ركنا خاصا يحمل اسمه تزينه لوحه" لشلة الحرافيش" التي كانت تضم رواد الادب والفكر في مصر خلال القرن العشرين.

وعبر محفوظ عن أهمية المقهى في حياته الأدبية قائلاً : "عرفت المقهى في سن مبكرة منذ دراستى الثانوية وكان لي مقهى في كل منطقة فكان جلوسي في مقهى الفيشاوي بالقاهرة يوحي لي بالتفكير".

يمثل المقهى – بوصفه مكانا – قاسما مشتركا للأمكنة التي نحيا فيها ، ونقطة تكون بمثابة محطة رابطة بين أمكنة العيش البيوت ، وأمكنة العمل ، وأمكنة الترفيه ، ثم هو المكان المختزل لكل هذه الأمكنة ، كما يلعب دورا حيويا بالربط بين الأفراد خروجا على ملل الحياة اليومية ، يبدو دوره في حركته على ألسنة الأفراد والجماعات ، مما

يجعله عنصرا لغويا تتبدى فاعلياته في لغة الخطاب اليومي :

موعدنا السابعة على قهوة ....

نتقابل الليلة على القهوة ...

نلتقى على "الحرية" .....

ستجده على مقهى ...

كاشفا عن مستويات متعددة للمقهى[1] في حياتنا اليومية ، وطارحا بعدا تاريخيا يتوازى مع تاريخ الإنسان العربي نفسه .

وتشير العبارات السابقة لمستوى العلاقة بين الأفراد ، حيث لا تتوقف دلالتها عند حد الإخبار أو التحديد، وأن شخصين يضربان موعداً للقاء ، وإنما يتعدى الأمر هذه الدلالة إلى إشارة واضحة في كل مرة، حيث بإمكاننا أن نفهم المساحة بين متحاورين ، إذ هما لا يلتقيان كثيراً في المكان ومن ثم فإنهما في حاجة إلى تحديد الموعد الزماني والمكاني بدقة ، مما يدلل على ضيق المساحة اللغوية للتخاطب (وهو ما تشير إليه العبارة الأولى) ، أما الثانية فإن مساحة التفاهم فيها تتسع للدرجة التي يكون فيها المتحاوران واقفين على أرضية واحدة ، واصلين إلى درجة كبيرة من التفاهم ، ويكفى الوقوف عند اللفظ المعرف "القهوة" بوصفها مكانا معروفا لديهما .

وفي الثالثة يختفى الزمان والمكان ويبقى الاسم المحدد الذي يشير بدوره إلى صورة من صور التفاهم التام ، فالموعد معروف والمكان أيضاً ، ولا ينقص إلا العزم على اللقاء أو الإخبار به .

فإذا كان كل تركيب تعبيري من هذه التعبيرات قادراً على بث دلالة خاصة به فإنها مجتمعة يمكنها أن تشير إلى نقطتين لهما أهميتهما ودلالتهما أيضاً.

الأولى : الاستخدام المجازي " للقهوة" إذ يحل المشروب محل المكان ، المشروب الذي

---

(١) يستعمل اللفظان المقهى – القهوة بمعنى و احد للإشارة للمكان وهو الاستعمال الدارج الذى لا يتوقف عند تداوله فى الواقع وإنماتستعمله الرواية أيضاً حيث تتداول الرواية العربية اللفظين لتحديد المقصد المكانى نفسه .

تغير مفهومه وتبدلت دلالته عبر رحلة تطور اللغة نفسها[1] وهو حلول يتغلب فيه اللفظ العامى "القهوة" على الفصيح "المقهى" في الإشارة إلى المكان ، إذ أن اللفظ الفصيح "القهوة" المشير إلى المشروب ، يصبح عامياً بإطلاقه على المكان الذي يقدم فيه المشروب وغيره من المشروبات ، فالمكان يحصل على اللفظ / اللقب "القهوة" وإن لم يقدمها ، أو خلا منها، وقدم غيرها من المشروبات أو الأطعمة أحياناً إلى جانب المشروبات .

الثانية : كون المقهى عنصراً يمثل قاسماً مشتركاً فى الحياة اليومية العربية قد تتغير صفاته وأسماؤه وملامحه ، ولكنه لا يبتعد تأسيسا على هذا التغير ، أو الاختلاف عن القيام بهذا الدور الانساني ، فهو مكان للقاء ، ذلك اللقاء الذي يكون بداية لنشاط إنساني فعال ، إذ ليس المقهى مكانا لإزجاء وقت الفراغ ، أو لصناعة الكسل ، تلك الصناعة التي – إن أردنا تعقبها تاريخياً – تمثل تراثا بشريا لا تنفرد به أمة دون الأخرى .

فقد عمد الناس في كل زمان ومكان إلى السعي إلى صناعة وقت للكسل يقابل وقت العمل والكد ، ودراسة تاريخ المقهى بوصفه فكرة إنسانية لا تقف بنا عند تاريخ بعينه ، وإذا أخذنا القاهرة بوصفها المدينة التاريخية ، أو المدينة التي يعد المقهى عنصراً أساسيا من عناصر بنيتها الحضارية ، فإنه ليس ثمة تحديد قاطع لزمن ظهور المقهى في الحياة المصرية .

وإن كانت الشواهد تشير بشكل أو بآخر إلى الظهور المبكر تاريخيا . وربما لا تهمنا البداية بقدر ما يهمنا أن نتعرف على الدور ، أو الأدوار المتعددة للمقهى بدرجة نستدل من خلالها على أن الوظيفة المتعددة الوجوه للمقهى تكشف عن علاقة قديمة وقارة فى حياة المصري .

---

(١) أطلقت القهوة قديماً على الخمر . سميت بذلك لأنها تقهى شاربها عن الطعام أى تذهب بشهوته أو تشبعه ، أنظر لسان العرب مادو " قها " وهى المادة التى تدور مشتقاتها حول الارتداد عن الطعام وفقدان الاشتهاء له والزهد فيه وترك الشراب أيضاً ، وهو ما يثير تساؤلاً حول انتقال المعنى إلى "القهوة" المشروب المعروف الذى إن اشترك مع الخمر فى تأثيره على شاربه من حيث الإعراض عن الطعام فإنه يضاده فى تغييب الوعى بأثر الخمر والتنبيه بأثر القهوة فى صورتها المعروفة ، ويورد صاحب اللسان معانى أخى لمشتقات الجذر اللغوى .

يتساءل الغيطاني في مقدمة كتاب "مقاهي الشرق" : "إلى أي عمق تاريخي ينأى عمر المقهى القاهري ؟ لا يوجد مرجع تاريخي يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريس هذا العالم المتكامل ، ولكن الذي لا شك فيه أن المقهى كان جزءا من الحياة القاهرية"[1] .

ومع تعدد أدلة التحقق التاريخي للمقهى فإن أيا من المصادر التاريخية لم يشر تماما للبداية المحددة للمقهى ، وإذا نستنتج منها جميعها قدم هذا التاريخ ، والمساحة التي يشغلها المقهى في الحياة العربية ، وهو ما لفت نظر كل الذين عاينوا هذه الحياة .

وقد صنف ج . دي شاربرول المقهى القاهري بوصفه واحدًا من العادات المدنية والأسرية ، ورابطا المقهى بالإنسان المصري في طور الرجولة ، ويفرد مساحة لمقاهي القاهرة يستهلها برصد عدد المقاهي القاهرية ، وخصوصيتها: " تضم القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهي مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة ، وليست لهذه المباني أية علاقة بالمباني التي تحمل نفس الاسم في فرنسا إلا من حيث استهلاك البن "[2] ، ويروح يصف المقهى : تأثيثه ، والمترددين عليه ، ونظام العمل فيه بما يوحي كونه مؤسسة اجتماعية كاملة النظام ، ويؤكد على دور المقهى التثقيفي ، والترفيهي في آن ، مفصلا القول في البعد الطبقي للمقهى عبر الرواة والمنشدين في مقاهي الطبقة المتوسطة ، والمقاهي الفخمة، ومن الأهمية بمكان التوقف عند رؤيته لاعبي الشطرنج بوصفهم ممثلي بانتوميم ، في إشارة دالة لما منحه المقهى من مساحة لظهور فنون جديدة.

لقد أجمعت أقلام المستشرقين والرحالة على تقديم المقهى بوصفه أحد أهم أركان الحياة الاجتماعية والثقافية المصرية ، بحيث رسموا له صورة تقدمه مدارا لحركة الحياة ، مكانا ليس فاصلا تماما بين الحياة العامة والخاصة لرواده ، وهي صورة تكشف في طياتها عن البعد الوظيفي للمقهى .

---

(١) جمال الغيطانى : مقدمة : مقاهى الشرق . إعداد جيرار جورج ليميز . مؤسسة أخبار اليوم . ١٩٩١

(٢) ج . دى شايول : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين . الكتاب الأول من موسوعة وصف مصر . ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ٢٠٠٢ .

وهي الصورة التي لم تبتعد عنها الرواية العربية ، مستفيدة من المقهى بوصفه علامة على الواقع ، وعلامة على النص الواقعى أيضا ، فالمقهى جدير بتقديم الكثير من الحياة الواقعية التي لم يكن بإمكان الرواية العربية في مرحلة صعودها أن تتجاوزها ، وأن تقاربها مقاربتها للإنسان العربي .

obeikandl.com